الفصل الثاني

صورة الريف العربي في التاريخ والثقافة والمجتمع

أولًا: صورة القرية في القرآن الكريم

يعد القرآن الكريم أهم المصادر التاريخية التي توثق للحياة الاجتماعية العربية في العصور الماضية، فهو نص غني بالإشارات والتلميحات الظاهرة والباطنة والتفاصيل الهامة حول حياة العرب والشعوب التي جاورتهم أو عايشتهم.

ومن أجل إجلاء صورة الريف والريفيين والقرية والقرويين قد يكون من الفائدة المعرفية التعمق في مكانة وصورة هذه المجموعات ودلالاتها الاصطلاحية التي عبرت عنها في القرآن الكريم، بل لعله من المفيد أيضًا دعم هذا التوجه البحثي بالقيام بدراسة السنة النبوية الشريفة وما يتعلق بصورة الريف ومكانة القرية ومفاهيمها، فذلك سيساهم في إجلاء صورة هذا الموضوع في الحضارة العربية والإسلامية.

إن القيام بهذه المهمة يتطلب بدون شك إجراء دراسة معمقة ومقارنة تأخذ بعين الاعتبار مختلف مصادر التفسير والتاريخ حتى يتم تناول الأحداث ودلالات المفاهيم وفق سياقاتها التاريخية والجغرافية الصحيحة. وبالقاء نظرة سريعة وإجراء متابعة شاملة نسجل جملة من الملاحظات يمكن تلخيصها فيما يلي ريثما تتوفر الفرصة وتسمح الظروف بالقيام بهذا العمل العلمي الهام والضروري.

obeikandl.com

ورد استعمال لفظ القرية في القرآن الكريم خمسة وخمسين مرة موزعة كما يلي: **(بصيغة المفرد ٢٦ مرة – بصيغة الجمع ٢٧ مرة – بصيغة المثنى ٢ (مرتين))** وقد وردت أغلب هذه الاستخدامات في صيغ لا تدل على أهل الريف وسكان البوادي التي تحيل إليها معاني ومصطلحات الريف في عصرنا، وإنما ذكرت بمعنى الجماعة مرة والشعب أخرى، وهي لا تفيد تجمّع الجماعة القروية التي يحتضنها في العادة المجال الريفي أو ما يقابل المدينة. ولذلك ورد استعمالها في سياق يوازي دلالة لفظ الأمة والقوم والشعب وخاصة في صيغة المنادى "يا" وهو سياق يحيل إلى الفرقة والطائفة. كما يحيل استخدامها في القرآن الكريم إلى الجماعات الموغلة في القدم التي أصابها الخراب.

أما لفظ الأعراب الذي يدل في العادة في الاستعمال القرآني على البدو ويرد في مقابل سكان المدن، فهو لا يذكر في علاقة بسكان الريف. ومما يلاحظ أن لفظ "مدينة" لم يرد بكثرة في القرآن حيث لم يتعد ذكره الأربع مرات. يقول تعالى ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: آية ١٢٠).

وعمومًا فإن ذكر القرية يرد في إطار التذكير والوعد والوعيد والدعوة للاعتبار مما حصل لبعض الأقوام والشعوب من دمار وعقاب نتيجة انتشار الفساد والاستعباد لدى أولئك الأقوام.

إن لفظ القرية لا يدل في القرآن الكريم على طبيعتها الاجتماعية أو المجالية والاقتصادية، كما أن الإشارة كثيرًا ما تتم إلى سكان القرية وليس إليها في ذاتها ﴿ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ (الأعراف: آية ٩٦). ولذلك يرد استعمالها في السياق الحضاري العقائدي أكثر منه في السياق الاجتماعي والمجالي الترابي، فالقرية ذات مدلول حضاري أوسع من دلالته اللفظية التي تحيل إلى القرية الريفية والزراعية اليوم في معناها السوسيو-جغرافي.

إن جاز لنا الحديث عن غياب لمفهوم القرية في النص القرآني فهو غياب بالمعنى الجغرافي، فلعل ذلك يعود إلى طبيعة المنطقة التي نزلت فيها الرسالة المحمدية حيث كان يضعف وجود الوحدات الريفية بالمعنى الاجتماعي ولذلك ارتبط مفهوم القرية كوحدة سكانية بالمفهوم الحضاري المديني. وهذه الدلالة أضفت بعدًا سلبيًا على صورة القرية حيث وصفت بالظالمة والخاوية على عروشها والتي أهلكها الله "سورة الحج"، كما وصفت بالكفر والموت "سورة الفرقان". فهي في هذا السياق ترد مقترنة بالدمار ولذلك وردت عبارة ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ (القصص: آية ٥٩) وعبارة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ (العنكبوت: آية ٣١) فالقرى المدمرة تذهب ضحية "مترفيها من الكافرين".

أما الصيغة الإيجابية لمصطلح القرية فترد في القرآن الكريم ضئيلة ونادرة فقد وردت مرة واحدة باعتبارها "بلدة طيبة"، كما وردت للدلالة على مكة المكرمة في عبارة "أم القرى"، كما ذكرت القرية باعتبارها تجمعًا عمرانيًا محضًا ﴿ مُّحَصَّنَةٍ ﴾ (الحشر: آية ١٤).

هكذا نستنتج حضورًا لافتًا للفظ في صيغتي الإفراد والجمع، وهو حضور يغلب عليه طابع الدعوة إلى الاعتبار من تاريخ الشعوب والأمم التي اندثرت قراها بسبب ما ساد فيها من ظلم وشرور.

إن لفظ القرية لم يرد في القرآن باعتباره مجالًا زراعيًا أو فضاءً ريفيًا يشكل وحدة اجتماعية إنتاجية كما هو الحال في عصرنا اليوم، بل جاء في سياق يعتبرها مراكز حضارية مندثرة وهي أقرب إلى مراكز الاستقرار والحضارة. ولعل هذا الاستنتاج سيفيدنا في تسليط الضوء على بعض الإشكاليات النظرية والمنهجية التي تعترضنا حينما نحلل مفهوم القرية العربية اليوم وما يكتنفه من خلط أو عسر في عملية تفكيك الدلالات والمعاني والتعبيرات.

ثانيًا: صورة الريف والقرية في مصنفات التاريخ العربي

يكاد المؤرخون العرب في العصر الوسيط لا يميزون بين البادية والريف والقرية، فقد ظلت الإشارات إلى ذلك مبثوثة في كتبهم، فتميز ذكر ذلك المجال الريفي بالعرضية والعمومية. وكان كلود كاهن قد أشار إلى أن الدراسات حول البادية والريف نادرة جدا لقلة الوثائق، ولا يخفى على الدارس أن الصبغة المدنية للحضارة العربية الإسلامية، قد طبعت[١] هذا الجانب رغم عيش السكان على الإنتاج الزراعي، كما أن المدنية ظلت المقر الرئيس للمؤسسات، فضلًا عن امتلاك أصلها لجزء هام من الأرض (الإقطاع الإداري والإقطاع العسكري)[٢]. كما أن المدينة ظلت المنتج الأساسي للثقافة الكتابية التي غالبًا ما أهملت الحديث عن المزارع وعن البدوي فلم تذكره إلا بشكل عرضي وبكيفية منحازة في الغالب[٣].

أما الرحالة العرب فقد وصفوا بعض القرى ومنهم اليعقوبي في كتاب "البلدان" وابن حوقل في كتابه "صورة الأرض" والبكري في كتاب "المسالك" والتيجاني في "الرحلة". وقد استعمل بعضهم مصطلحات مميزة لتحديد الأهمية المورفولوجية للقرى التي وصفوها، حيث إن التيجاني في رحلته ببلاد المغرب ذكر مصطلح "قرية صغيرة" و"قرية حقيرة" (بمعنى متواضعة) أو "قرية بلا معنى".

---

(١) Claude Cahen, communautés rurales, Paris, 1982, p 10.

(٢) بوطالب، محمد نجيب، الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، دار المعارف سوسة، تونس، ١٩٨٩م، ص ١٤٠.

(٣) حسن، محمد، المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي، ج١، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٩م، ص ٨.

openkapdi.com

كما تحدث بعض المؤرخين والرحالة عن دور الزوايا في بلاد المغرب ابتداءً من القرن الثالث عشر الميلادي. كما ظهر الأنموذج الأندلسي للقرية في المغرب العربي حيث عرف العهد الحفصي القرى الزراعية ذات الوحدة الإنتاجية وقد ذكر البرزلي أن "الغالب على قرى إفريقية عدم التملك"(٤).

وعند احتلال الأمن بالبحر المتوسط وشمالي أفريقيا مع أواخر العهد الوسيط، أجبرت بعض القرى على تغيير مواضعها بانتقال سكانها للاستقرار في المرتفعات المنيعة كالقصور والقلاع بالجنوب الشرقي لافريقية، فيما اختفت قرى أخرى وهجرها أهلها. أما القرى الساحلية والسهلية التي تعرضت للهجومات والتعديات القادمة من البحر فقامت ببناء أسوار وجدران لحماية نفسها.

ومع ذلك تتصف دراسة الظاهرة القروية في المنطقة العربية خلال المراحل القديمة بالندرة فهي لا تتناسب مع أهمية الدور التاريخي للأرياف وذلك بسبب قلة الوثائق المتعلقة بموضوع الريف والفلاحة والفلاحين، فضلًا عن ضحالة المعلومات الاقتصادية والاجتماعية الواردة في كتب الحوليات والتواريخ.

ومع ذلك يوجد صنف آخر من المصنفات التاريخية التي ما زال أغلبها في طي الإهمال وعدم الاستغلال وهي كتب الطبقات والسير ومصنفات الفقه والفتاوى. وكان المؤرخ برنشفيك قد نبه إلى أهمية هذه المصادر في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي(٥). فكتب النوازل تمثل أهم تلك المصادر وأغناها ميدانيًا ومنها

---

(٤) البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج١، ص ٢٠ب، (نقلًا عن محمد حسن في المرجع السابق، ص ٦١).

(٥) Brunschrig, Robert, L'intérêt historique des Ahquâms et des Nawazils, in, A.I.E.D. 1943.

كتاب الونشريسي[٦] الذي يتضمن فصلًا متكاملًا عن نظام المزارعة ونظام المغارسة ونظام المساقاة ونظام الشركة[٧].

ويرى محمد حسن في أطروحته "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي" أن كتاب "القسمة" لأبي العباس أحمد الفرسطائي (القرن الثاني عشر الميلادي) يمكننا من سدّ فراغ كبير في المكتبة العربية عمومًا والمغربية خصوصًا حول قانون المياه السطحية.

ثالثًا: بداية تشكُّل القرى في العراق القديم

بدأ الاستيطان البشري القديم في العراق في الجزء الشمالي حيث وجدت أول قرية في مرتفع زاوري جمي)، ثم (جرمو) التي كانت أول قرية زراعية في العراق، ثم انتشرت إلى الجزء الأوسط ثم امتدت إلى الجزء الجنوبي، فقد كانت (أور) و(الوركاء) و(أريدو) أقدم المستوطنات التي انبثقت عنها أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية كانت الأولى في العالم القديم وخاصة في مجالات أنظمة الري والزراعة وتنظيم الحياة اليومية في القرى والمدن.

فالمصطلح السومري والأكدي لم يفرق بين القرية والمدينة في مجال المستوطنات وتطورت الأوضاع إلى أن أصبح السور هو الحد الفاصل بين المدينة والقرية.

لقد شمل التطور الاقتصادي مجموعة الأنشطة الاقتصادية التي بدأت بالزراعة وتربية الحيوان، ثم تطور الحرف اليدوية الذي أدى إلى زيادة الإنتاج وتوسع عمليات

---

(٦) الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م.

(٧) حسن، محمد، القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، ١٩٨٦م، ص ٢٨.

التبادل والحاجة إلى تصدير الفائض إلى خارج حدود تلك المستوطنات. كما أن السيطرة التدريجية للإنسان على مصادر المياه لأغراض الزراعة وتطوير تقنيات توزيع المياه صاحبها تنظيم عملية الخزن وتطوير عمليات النقل والمواصلات.

ويقدر المؤرخون علماء الآثار[٨] أن نشأة وتطور القرية العراقية الأولى قد مرت في تكوينها بست مراحل هي:

١- المرحلة التكوينية الأولى، وهي مرحلة ما قبل القرية (٩٥٠٠-٦٠٠٠ ق.م) وتمتد من العصر الحجري القديم إلى نهاية العصر الحجري الوسيط.

٢- المرحلة التكوينية الثانية، وهي مرحلة نشوء القرية وتركز استيطانها. وتمتد بين نهائية العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث. وقد تطورت علاقة الإنسان بالأرض في هذه المرحلة، حيث تم تدجين الحيوان في أغراض النقل والحركة. كما تميزت بأهمية كيان الأسرة ودور المرأة التي أصبحت ترمز إلى الخصب بما جعلها تحتل مكانة مقدسة.

٣- المرحلة التكوينية الثالثة، وهي مرحلة بدايات تشكل المدن وتمتد بين العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني، وقد امتدت القرى في هذه المرحلة من الجزء الشمالي من العراق إلى الجزء الأوسط المنبسط على ضفاف الأنهار. وتمثل القرى الصغيرة[٩] التي تقع خارج الأسوار مجالا لسكنى الفلاحين ورعاة الحيوانات في المناطق الزراعية المحيطة.

---

(٨) نخبة من الباحثين، حضارة العراق، ج٣، البدراوي، عدنان، نشأة القرى العراقية الأولى، ضمن كتاب "المدينة العراقية" جامعة بغداد، ١٩٨٥م، ص ٢٨٥.

(٩) نفس المرجع السابق، ص ٣٠٦.

٤- المرحلة التكوينية الرابعة، وقد عرفت بانتشار وتوسع مراكز الاستيطان (٥٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م). وقد عرف فيها تشكل القرى توسعًا نحو جنوبي العراق على امتداد السهول الرسوبية باتجاه رأس الخليج العربي. وكان السكان في هذه المرحلة يعتمدون على صيد السمك وتربية الماشية. وقد احتلت بعض القرى الجنوبية مركزًا رئيسيًا بين التجمعات القروية التي كانت تمثل مصدر غذاء وتموين لاقتصاد وسكان المدن.

٥- المرحلة التكوينية الخامسة، وهي تمتد (من ٤٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ ق.م) وتمثل العصر الحجري المعدني الأخير. وفي هذه المرحلة شهدت المنطقة تطورًا في الزراعة وتربية الماشية صحبه تطور في نظام الري وإقامة السدود، كما تطورت أدوات الزراعة كالمحراث وعجلات العربات الخاصة بالنقل، فضلًا عن تطور الصناعات الحرفية في مجالات السفن الشراعية والنسيج والدباغة والجلود والأصواف والفخار. وعمومًا فقد عرف المحيط الريفي نشاطًا ملحوظًا من خلال تطور منتوج المزارع والمراعي المحيطة بالمدن (الضواحي)، وقد تحول العديد من تلك القرى الزراعية إلى مدن صغيرة.

٦- أما المرحلة السادسة، فقد عرفت بظاهرة ازدهار المدن بين (٣٥٠٠ و٢٨٠٠ ق.م) وفي هذه المرحلة تم اختراع الكتابة بما ولَّد نهضة حضارية جديدة وشكَّل هذا التطور العام علاقة تمايز اجتماعي طبقي عرف الريف أجلى مظاهرها بعد ما هيمن النظام التعاوني على المراحل السابقة.

كما شهدت هذه المرحلة تطورًا تقنيًا ملحوظًا انعكس على النشاط الزراعي، حيث توسع استعمال المعادن في النشاط الزراعي الحرفي كما شهدت تطورًا متميزًا في نظام الري.

رابعًا: صورة الريف والريفيين في أدب الرحلة والجغرافيا العربية

بالعودة إلى الرحالة العرب الذين جابوا المنطقة ووصفوها منذ العصر الوسيط يتبين أن المدينة هي التي تشكل محور التركيز وهي المرجع والمحدد الأساسي للريف. وليست العلاقة بالضرورة علاقة تبعية كما حدد ذلك مندراس لاحقًا، ولا أسبقية لأحدهما على الآخر، كما خاض في ذلك العلامة ابن خلدون من خلال مقولته الشهيرة "البدو سابق عن الحضر"(١٠). هذا الاهتمام المبالغ فيه بالمدينة على حساب الريف والقرية العربيين هو الذي جعل الدارسين من أمثال المؤرخ أندري ميكال (André Miquel) يفسّر في كتابه "جغرافية العالم الإسلامي البشرية" أسباب ذلك في تمركز السياسة والاقتصاد والدين في المدينة(١١)، وهذا ما ذهب إليه أيضًا كراتشكفسكي في كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي(١٢)".

لكن كتبًا أخرى لم تظهر أهميتها للعيان إلا خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، أظهرت اهتمامًا واسعًا بالفلاحة والإنتاج الفلاحي وبالريف والريفيين ونشاطاتهم الاقتصادية مثل كتابي "الخراج" للقاضي أبي يوسف و"الكسب" لشيباني وغيرهما.

---

(١٠) من هذه المراجع: "كتاب الأعلاق النفيسة"، لأبي علي أحمد بن رسته طبعة ليدن، أبريل، ١٨٩١م، وكتاب البلدان لابن واضح المشهور باليعقوبي، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي.

(١١) André Miquel : la géographie humaine du monde musulmane jusqu'au milieu du 11è siècle, Mouton, Paris la Haye, 2ème édition, 1973, p 335.

(١٢) كراتشكفسكي، أغناطيوس: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ط٢، ص ١٩.

وكلاهما يعد من أهم المراجع الاقتصادية العلمية التي توثق للحياة الاقتصادية في جوانبها الفلاحية والحرفية وغيرها. كما يمكن العودة للاستفادة مما لحق الفترة العباسية المعروفة بثرائها وإنجازاتها إلى كتب الفقه والأحكام وما يعرف بكتب النوازل.

ورغم ذلك يلاحظ بعض الدارسين غيابًا ملحوظًا للريف والريفيين في أدبيات العصرين الأموي والعباسي، وذلك لتغييب هذا الجزء من المجتمع سياسيًا والتعالي عن أخبار العصبيات القبلية وثوراتها ضد السلطان وحاشيته[١٣].

يقول اندريه ميكال في هذا الشأن محللًا أسباب غياب جغرافية القرى في التراث العلمي العربي الإسلامي: "هل نجد حقيقة مع المسالك، جغرافية قروية؟ بالتأكيد لا. يمكن في بعض الأحيان أن نجد بالمسلك حديثًا عن المجموعات التي تعيش من الأرض، أو نقلًا لبعض جزئيات الحياة أو الذهنية الريفية... ضمن أول وهلة يتبين لنا أن الجغرافية تعتني بحياة المجموعات الحضرية... بالأساس تبقى الجغرافية العربية الإسلامية جغرافية المدن، وذلك يعود تقريبًا لكونها جغرافيا الموظفين والأدباء والتجار..."[١٤].

خامسًا: صورة القرية والريف في الأدب والإعلام

كان حليم بركات[١٥] المهاجر هجرة بعيدة قد تنبه إلى ظاهرة الحنين إلى الأرياف والتوق إلى القرى عند المهاجرين إلى المدن العربية. حال إلى نمط المعيشة القروية يرافق

---

(١٣) أونينة (حمدي): "صورة الريف والريفيين ما بين صورة الأرض وعلم المسالك" (نص مرقون)، تونس ٢٠٠٢م.

(١٤) اندريه ميكال: (المرجع السابق، نقلًا مترجمًا عن حمدي أونينة، ص ١٠).

(١٥) بركات (حليم)، المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث في تغير الأحوال والعلاقات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٦م.

الريفي في حلّه وترحاله بالمدينة. وهذا ما لاحظه بركات في تشبث المهاجرين بمنظومة السلوكيات القروية وتمسكهم بها وهي حميميات سلوكية تتراوح بين حمل ذكرياتهم في أدوات استعمالهم أو ملابسهم أو أنماط مطبخهم وبين حرص المهاجرين الذين لم تطل هجرتهم على تربية الماشية في إحياء المدنية والحفاظ على القيم الريفية.

لكن هذه الحميمية كثيرًا ما اتخذت شكلًا إبداعيًا ثقافيًا تجسده الأعمال الأدبية العربية العديدة من يوميات **نائب في الأرياف** لتوفيق الحكيم إلى رواية **الأرض** لعبدالرحمن الشرقاوي إلى رواية الحرام ومسرحية **ملك القطن** ليوسف إدريس ورواية عرس الزين وقصص الطيب صالح واميلي نصر الله وروايتي **طائر الحوم وأنانة النهر** لحليم بركات إلى ديوان جمال الصليعي "**من أبناء القرى**" وروايتي "**ريح الجنوب**" و"**نهاية الأمس**" لعبدالحميد بن هدوقة، ورواية "**الكراسك**" لواسيني لعرج...

إن هذا الأدب الزاخر في الثقافة العربية المعاصرة انتشر انتشارًا واسعًا في البلدان العربية. ولا نكاد نجد قطرًا من هذه الأقطار يشذّ عن هذا الاتجاه. ومثل هذه الإبداعات أصبحت تشكل مصدرًا اساسيًا تفوق أهميته الدراسات الاجتماعية الميدانية من حيث عمق التصوير وفهم حياة الناس في القرى والأرياف العربية.

فالتراث الأدبي الإبداعي حول الريف جمع موضوعات كثيرة وعرض ظواهر عديدة عانى منها المجتمع ككل مثل تريف المدن، والهجرة من الريف، وتهميش القرية، وهيمنة الثقافة التقليدية والحراك الاجتماعي، وصراع القيم، وغير ذلك من الموضوعات السوسيولوجية الهامة.

إن صورة الريف والريفيين تكاد تتكرر في عديد من المجالات الإبداعية الأخرى ومنها المسرح والسينما، كما يمثل الإعلام مجالًا خصبًا لدراسة صورة الريف في وسائل الإعلام العربية من إذاعة وتلفزيون وصحافة. أما في البرامج التعليمية بدورها فإن

الريف عرف تمثلات معينة درسها بعض الباحثين على ندرتهم. وأماطوا اللثام عن الصورة النمطية التي لا تخرج عن إظهار الريفي بمظهر الدونية والاستنقاص[١٦].

وعلى العموم فإن هذه الصورة النمطية سرعان ما تراجعت في العقود الأخيرة بفضل انتشار التعليم في الأرياف وظهور تحولات عميقة فيها جعلت أبناء الريف أنفسهم يدافعون عن "ريفيتهم" ويصححون المواقف والصور، وخصوصًا بعدما تمكن هؤلاء من التعبير عن ذواتهم في المدينة. بوسائلها وأدواتها التربوية والإعلامية والسياسية، عبر النفاذ إلى تحمّل مسؤوليات وأدوارا كانوا مقصيين عنها من قبل.

لقد تحولت صورة الريف في المجتمع العربي المعاصر من صورة نمطية سلبية إلى صورة متنوعة موضوعية. وبعد اكتشاف الرأي العام الوطني في كل قطر على حدة ثراء أريافه وجمال جباله وصحارية تحولت الصورة المرتسمة قرونًا لدى أهل الحضر من واقع يحيل إلى الخوف والغموض والعنف والفقر إلى واقع يحيل إلى الاطمئنان والسكينة والبيئة النظيفة والمجال الممتع والطبيعة الخصبة جمالًا ومتعة كان قد تنبه لها الأجنبي قبل غيره من خلال حملاته ورحلاته السياحية إلى تلك المواقع الجذابة.

سادسًا: القرية في الدراسات العربية المعاصرة

يعتبر كلّ من حليم بركات ومحمود عودة وعاطف غيث وحامد عمار وهشام شرابي من أهم علماء الاجتماع العرب المعاصرين الذين اهتموا بدراسة القرية في المنطقة. وثمة عديد من الدراسات الأخرى التي ظهرت في أقطار تطور فيها البحث السوسيولوجي والأنتربولوجي مثل المغرب ومصر والعراق وسوريا. لكن هذه

(١٦) التليلي (جلال)، صورة الريف في البرامج التعليمية، رسالة الماجستير في علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بتونس، ١٩٩٧م، (تحت إشرافنا).

الدراسات لم تراكم نتائجها ولم تطور مفاهيمها ونظرياتها لتصبح مرجعيات معروفة رغم المحاولات، فأغلب الدراسات حول القرية في المنطقة العربية جاءت إما في سياقات مختلفة وإما خارج سياق السوسيولوجيا كالدراسات المونوغرافية التي أجراها بعض المختصين في الأنتربولوجيا والتاريخ والجغرافيا، وإما أنها كانت دراسات منفردة فلا تعدو أن تنجز في إحدى المهام الظرفية كإنجاز أطروحة أو القيام بدراسة استشارية تندرج فيما يمكن أن نسميه بـ"الدراسات حسب الطلب".

وقد اعتبر حليم بركات[١٧] أن القرية العربية تختلف عن القرية في أوروبا في تمحورها حول العائلة الممتدة التي تنظم وجودها وتمركزه حول علاقات التزاوج والتضامن وهو يقسم القرى في المنطقة العربية إلى قرى منفتحة وأخرى منغلقة ومعزولة. وفي المرحلة التقليدية عرفت القرية العربية باحتكار خط نسب محدد للملكية العقارية في إطار القرابة واحتكار المناصب وراثيًا في صلب العشيرة.

وقد بين عاطف غيث[١٨] أن هذه الحالة التقليدية للقرية كانت تحيل إلى تصور الفلاح المصري للدولة وللعاصمة.

كما يعتبر غيث أن المكانة الاجتماعية للأفراد القرويين كانت تتحدد من خلال علاقتهم بالملكية العقارية للأرض من جهة ومن خلال علاقتهم برموز السلطة المحلية الريفية من جهة ثانية. فثمة انقسام في القرية بين المالكين والأجراء. وقد أدت الأوضاع المتدهورة إلى ظهور الهجرة إلى المدينة في صفوف هؤلاء الأجراء والعمال

(١٧) حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، دراسة اجتماعية استطلاعية، م.د.و.ع، بيروت، ص ٨.

(١٨) عاطف غيث، دراسات في علم الاجتماع القروي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م، ط١، انظر كذلك كتابُه "التغير الاجتماعي في المجتمع القروي دراسة في محافظة الدقهلية"، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

الزراعيين. فقد أدت التحولات السريعة والجذرية التي عرفتها ملكية الأرض منذ عهد محمد علي وحتى منتصف القرن العشرين إلى إضعاف ارتباط القرويين بالأرض.

كما عرف غيث بدراساته لقرية "القيصران" وقرية "هلا" وقرية "كفر الشيخ" ومن أهم ما توصل إليه في هذه الدراسات التطبيقية إبرازه لدور عامل التغيير الداخلي غير الموجه، أما العوامل الخارجية فهي مجرد عوامل معجّلة، فتفكك العائلة القديمة وازدياد عدد السكان يعتبران العاملين الداخليين الحاسمين في تبدل أشكال النشاط الاقتصادي فضلًا عن عامل الاتصال بالمدينة الذي فرض لدخول نماذج حضارية جديدة على الأرياف وهذا ما استنتجه حامد عمار[١٩] من دراسته لقرية "سلوا" حينما وجد أن علاقة الفلاح بالأرض تتخذ طابعًا عاطفيًا متينًا يجعله يميل على الدوام إلى العمل الزراعي رغم تحركاته باتجاه المدينة.

وتمثل قيمة الأرض في المجتمع القروي العربي أهم القيم الاجتماعية والاقتصادية. "فالأرض عرض" في التعبير الشعبي المتداول، وامتلاك الأرض دليل الوجاهة والأصالة، كما أن العمل عليها وفي مجالاتها يجسّد ارتباطًا يعطي قيمة للفلاح إلى درجة تصل إلى اعتبار أن العمل هو جزء من العبادة، فالأرض تحتل أعلى سلم القيم الثقافية والاجتماعية تقاس بها المكانة الاجتماعية للأفراد والمجموعات. ورغم طابع الجفاف المتغلب وضعف المردودية فإن التحولات التي عرفها النصف الثاني من القرن العشرين وتوسع المشاريع الزراعية الحديثة جعلت من هذه العلاقة علاقة وطيدة وحميمية، زاد من مكانتها تأزم الحياة في المدن وتغير المفاهيم المرتبطة بالحياة في المجتمع الريفي.

---

(١٩) حامد عمار، التنشئة الاجتماعية في قرية مصرية (سلوا)، مترجم، دار ١٩٩، ط٢، المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧م.

ويرى حليم بركات أن المنطقة العربية تميزت في المراحل الحديثة بثلاثة عوامل أساسية أولها ما يتعلق بالعلاقة بالأرض وطبيعتها، وثانيها يتعلق بطبيعة القوى البشرية في الريف، وثالثها يتعلق بواقع عزلة القرية أو انفتاحها.

فالعديد من الأقطار عرفت تغيرات في طبيعة الأرض ذاتها، وأهم مثال على ذلك ما عرفته أقطار المغرب العربي من استعمار زراعي اعتمد على عمليات الانتزاع والاجتثاث بما ولد اضطرابًا في التشكيلات الاجتماعية والسكانية وعلاقتها بالفضاء.

وفي أقطار عربية أخرى مثل مصر وسوريا ولبنان عرفت القوى البشرية حراكًا نتيجة الاختلال بين حجم السكان وبين الموارد الاقتصادية ومنها الأرض، وقد أدى ذلك بدوره إلى انتشار الهجرة وتضخم حجم سكان القرى.

أما العامل الثالث فيتمثل في التدخل المبالغ فيه من قبل أجهزة الدولة في شؤون الأرياف والقرى وإحكام تبعيتها للمدينة من جهة وللمراكز الرأسمالية الخارجية من جهة ثانية.

وقد أدت هذه العوامل الثلاث إلى عديد من التأثيرات التي يمكن تلخيصها في:

- انتشار الاقتصاد السلعي في الريف وتوسع استعمال النقد.
- تزايد الاحتياجات الاستهلاكية التي فاقت وارداتها صادراتها.
- تفتيت الملكية العقارية وتذررها بما أدى إلى إضعاف مردودية العمل الزراعي وخضوع هذه الملكية إلى مضاربات السوق، بما أدى إلى العجز عن مجابهة الحاجيات المتزايدة.
- لجوء عدد هام من أبناء الريف إلى الهجرة إلى المدن والجهات الساحلية ثم الهجرة إلى الخارج (أوروبا والخليج).
- انتشار التعليم الحديث كجسر للحصول على وظيفة إدارية تابعة للدولة.

– اتساع علاقة الريفي بمحيطه من خلال الاتصال المباشر بالأجهزة الإدارية والفنية الحكومية بما أدى إلى تغير في علاقة سكان الريف بمحيطهم.

– انخراط سكان الريف في الحركات السياسية الوطنية بعد أن كانت مشاركتهم تقتصر على التمرد والثورة في سياق غير منظم، فقد تسربت التنظيمات السياسية والنقابية والمدنية إلى الأرياف العربية بما غيَّر من علاقات التبعية بين المدينة والريف.

سابعًا: الأرياف العربية، التشابه والاختلاف

تلعب العوامل المناخية والثقافية والسياسية في المنطقة العربية منذ عهود تاريخية تالدة وحتى اليوم أدوارًا هامة في تحديد خصائص الأرياف العربية وإبراز عوامل الاختلاف والاتفاق بينها، فعلى امتداد الجغرافيا والتاريخ عرف الريف في المجتمعات العربية تجارب مختلفة ومر بمراحل تحكمت فيها عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية متعددة فتعددت نحل المعاش وتنوعت أنماط المعيشة. كما تشير الدراسات العلمية إلى أن هذا التنوع لم يغب حتى عن المنطقة الواحدة بسبب تنوع المناخ أو بسبب اختلاف التجارب المعيشية التي مر عليها الريف تحت حكم الدول المختلفة وفي سياق النظم الاجتماعية المتوزعة بين البداوة والحضارة.

إلا أن هذا التنوع رغم شدته، فإنه لم يمنع وجود مظاهر عديدة للتشابه والتماثل على امتداد المنطقة العربية مشرقًا ومغربًا. وهو تشابه فرضته التجارب المشتركة وخضوع المنطقة لمدة طويلة لدول موحدة استوجبت اعتماد نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية متقاربة.

١ – مظاهر التشابه

تعرف المنطقة العربية كوحدة جغرافية سياسية منذ القديم، فهي تتكون من مساحات تمتد بين المشرق إلى المغرب، فتشتمل الجزيرة العربية وبلاد العراق والشام

وبلاد النيل وبلاد المغرب الممتدة على الضفاف الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. ورغم اختلاف المناخ وتنوع التضاريس فإن هذه المنطقة شكلت عبر التاريخ وحدة سياسية ثقافية لعب الدين الإسلامي دورًا بارزًا في توحيدها وجمع أطرافها فشكّلت إطارًا مرجعيًا حضاريًا متميزًا عن باقي المناطق الآسيوية والأفريقية والأوروبية التي كانت تابعة لها. لكن هذه المناطق التابعة لم تعرف تبعيتها استقرارًا دائمًا بسبب اختلاف الهوية القومية أو بسبب الحروب والانقسامات.

إن العبارة الشهيرة التي قالها الخليفة العباسي هارون الرشيد في القرون الأولى من نشأة الدولة العباسية متوجها إلى سحابة عابرة ببغداد "**صبي حيث شئت فخراجك لي**"، كانت ولا تزال تدل على قوة الدولة العربية الإسلامية حينما كانت موحدة واسعة الأطراف.

فهذه العبارة تدل على أن هذه الدولة كانت تشرف على مناطق واسعة من اليابسة، كما كان التنظيم المحكم لاقتصاديات الدولة يدل على أن خراج الدولة وعائداتها كان كبيرًا بما يدل على المركزية والاتحاد.

لقد أدّى هذا التنظيم المركزي على مدى عدة قرون إلى اكتساب الريف التابع للدولة مشرقًا ومغربًا نفس الخصائص تقريبًا، فالنظم الزراعية المطبقة والتجارب المعتمدة في عمليات الري والرعي والفلاحة والإدارة كانت تؤدي إلى التشابه بين هذه الأرياف رغم اختلاف تضاريسها وتنوع مناخها. لقد اعتمدت الدولة أيضًا على تقسيم العمل في الأرياف العربية، فجعلت من بعض المناطق مصدرًا لزراعة النخيل وإنتاج التمور كما هو الحال في جنوبي العراق ومحيط البصرة خاصة، أو كما هو الحال في الجزيرة العربية بنجد والحجاز حيث واحات القصيم وغيرها.

كما تخصصت سهول المغرب العربي في إنتاج الحبوب حيث كانت "إفريقية" معروفة منذ القديم بأنها "**مطمور روما**" على حدّ تعبير المؤرخ هيرودوت الذي اعتبر

أيضًا أن تطور الزراعة المصرية كان يستفيد من النيل فقال "**مصر هي هبة النيل**". ويمكن تلخيص مظاهر التشابه في الريف العربي في النقاط التالية:

١- حافظت البادية العربية على أهم خصائصها الثقافية رغم تحول أنماطها المعاشية: فبالرغم من التوسع العمراني والازدياد السكاني الذي عرفته البلدان العربية خلال نصف القرن الماضي الثاني فإن البادية المتبقية في بعض الأقطار التي تعرف مساحة واسعة وانتشارًا تاريخيًا لنظام البداوة حافظت حتى اليوم على بعض ملامح الحياة البدوية كاستخدام الخيمة والاعتماد الواسع على تربية الماشية وشدة الترابط القرابي ممثلًا في الزواج الداخلي.

ورغم التحولات التي عرفها النمط البدوي الذي تلاشى في أغلب الأقطار ولم يعد يمثل النمط المعيشي والإنتاجي الأساسي، فإن المناطق ذات الرصيد البدوي في الجزيرة العربية وفي بادية الشام وفي صحراء سيناء وصحراء ليبيا وجنوبي الجزائر وتونس والمغرب ودواخل موريتانيا وصحراء السودان وغيرها لا تزال تتعايش فيها بقايا نمط البداوة إلى جانب الأنماط الجديدة التي أحلتها عمليات الاستغلال الحديثة للموارد الطبيعية فلاحة وبترول ومعادن.

فالخيمة العربية حافظت على خصائصها ووظائفها التقليدية رغم التحولات الجارفة، فقد ظلت علامة من علامات ارتباط السكان بأصولهم، وجسدت حنين المهاجرين إلى المدن إلى مواطن أجدادهم وشكّلت علامات انتمائهم وحفاظهم على هوياتهم المحلية القديمة. وتجسّد سلوكيات الرحلة الداخلية والتخييم الصحراوي وهوايات الصيد التي يقوم بها سكان المدن والقرى في عديد من الأقطار العربية اليوم خير مثال لهذه العلاقة الحميمية بين سكان الحواضر والبوادي، كما تمثل عمليات اقتناء القطعان وانتشارها في البوادي العربية خير دليل على شدة ارتباط السكان وحنينهم

وتمثلهم لأنماط عيش أجدادهم ممن استقروا في الأرياف والبوادي، وتشبثوا بها رغم قساوة الطبيعة وتقلبات المناخ وما كان يتبعها من شظف العيش وخشونته.

٢- علاقة التكامل بين الريف والمدينة تقوم مقام علاقة التبعية والصراع: بعد أن تميزت علاقة الريف والبادية بالمدينة العربية خلال فترات تاريخية معروفة بالصراع والتوتر أصبحت الأرياف والمدن متكاملة بعد تحقق الاستقلال وتحقيق الوحدة الوطنية في عديد من الأقطار العربية وبناء علاقة جوار قائمة على التكامل والتآخي.

فبعد أن كان الريف العربي مصدر القلاقل والثورات للدول والممالك، ففيه تنشب التوترات ضد السلطة المركزية في المدينة، وفيه تعشش المعارضات لتلك السلطة، أصبح في ظل بناء الدولة الوطنية مجالًا للتنمية وعرف علاقة تكامل مع المدينة في سياق برامج تهدف إلى إدماجه في الدورة الوطنية وجعله عنصرًا فاعلًا ومتفاعلًا مع التنمية.

وقد شهدت هذه العلاقة التكاملية بمرور الزمن توطدًا ومتانة مع توسع البنية الأساسية بالريف، وبينه وبين المدينة، فامتداد شبكات النقل وتحسن شبكة الطرقات ونفاذ وسائل الاتصال الحديثة إلى الأرياف العربية حولت هذه المناطق من جهات محرومة ومعزولة إلى مناطق تنمية عن طريق المشاريع السياحية (السياحة الصحراوية) والمشاريع الفلاحية (تطوير وتحسين تربية الماشية) والمشاريع المنجمية (استخراج البترول والغاز والفوسفات وغيرها)...إلخ.

٣- الأرياف والقرى العربية حافظت على وحدتها وهويتها: رغم التبدلات المناخية (التصحر désertification) ورغم البرامج الاستعمارية (الاجتثاث déracinement) ورغم توسع أنماط التحضر والتحديث، فإن الأرياف العربية استطاعت أن تحافظ على وجودها وخصوصياتها بل يمكن القول إن الأرياف والقرى كانت الخزان الدائم المولد

للطاقة الوطنية بكل أشكالها وهي المحافظة على خصائص الهوية الثقافية والاجتماعية في هذه الأقطار، وخاصة خلال خوض معارك البقاء على الأرض والحفاظ على الهوية العربية الإسلامية ضد الاحتلال بأنواعه.

ومما يلاحظه الدارس، اتجاه عديد من المهاجرين إلى المدن من ذوي الأصول الريفية والقروية والبدوية في الفترات الأخيرة إلى إحياء أراضي أجدادهم والحفاظ على تراث قراهم التي هجروا منها.

وفي البلاد العربية يعتزّ المواطن بانتمائه القروي أو البدوي فيسعى إلى إحياء تراثه وربط أواصر العلاقة مع موطنه الأصلي. ورغم أن العقود الأولى من الاستقلال قد صحبتها نظرة دونية للريف لأسباب اجتماعية واقتصادية تتمثل في ارتباط الريف بعملية دفع السكان إلى المدن والقرى الجديدة (هجرة ونزوح) فضلًا عن الصورة النمطية السلبية التي كانت سائدة حول هذا الفضاء الموسوم بالتخلف والجهل. وقد ساهمت وسائل الإعلام في انتشار هذه الصورة السلبية، رغم ذلك فإن هذه الصورة سرعان ما تراجعت وتصححت حينما أصبح الريف دليل الخصب والشهامة والكرم والصحة[٢٠].

٢- مظاهر الاختلاف

تختلف الأرياف العربية اختلافات نوعية، وهو أمر طبيعي يزيد في إثراء المشهد الريفي العربي. وتتمثل مظاهر هذا التنوع والاختلاف فيما يلي:

---

(٢٠) هذه الصورة الصراعية التي سادت عقودًا عبر عنها الأمير عبد القادر الجزائري في قصيدته الشهيرة التي دافع فيها عن البدو وسكان الريف قائلًا:

ما في البداوة من عيب تذم به ... إلا المروءة والإحسان بالبدر

وصحة الجسم فيها غير خافية ... والعيب والداء مقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى ... فنحن أطول خلق الله في العمر

١- تنوع الأرياف بتنوع المناخ والتضاريس: نظرًا لوجود عديد من النظم المناخية في المنطقة العربية فإن أرياف المنطقة تختلف فيما بينها؛ فمن المناخ البارد في شمالي العراق وسوريا وفي جبال لبنان وبعض أقطار المغرب العربي حيث تنزل الثلوج وترتفع معدلات متسببة في السيلان الدائم أو الموسمي للأنهار، إلى المناخ المتوسطي المعتدل الذي يميز السهول والدلتات ومصبات الأنهار وما تشكله من عمليات الطمي، مرورًا بالمناخ الجاف الذي يميز مساحات واسعة من صحاري الأقطار العربية في شمالي أفريقيا وفي شبه الجزيرة العربية، تختلف نظم الزراعة وطرق تربية الماشية وأشكال التعامل مع الطبيعة. كما تختلف تقنيات العمل الزراعي بالتماشي مع النظم المطبقة والأساليب المستعملة.

٢- اختلاف أساليب العيش (الانفتاح والانغلاق): هذا التنوع الذي شكل ثراءً في البيئة الريفية العربية جعل أساليب العيش في الأرياف والقرى العربية يختلف تبعًا للظروف والأحوال التي تمر بها هذه الأرياف وتلك القرى، فقرى الجبال الممطرة تعرف أنماطًا زراعية تختلف عن قرى الجبال والهضاب الجافة.

فجبل لبناء وكذا جبل الأطلس الأعلى بالمغرب وجبال الأوراس بالجزائر يختلف مناخها عن بيئات الجبل الغربي في ليبيا وعن بيئات جبال المدينة المنورة ومكة بالمكرمة بالمملكة العربية السعودية، وقد استتبع ذلك عمليات استغلال مختلفة للفضاء سواء من حيث طرق الزراعة وأساليب الرعي وأشكال المسكن. كما تختلف القرى الصحراوية في البلاد العربية عن بعضها بحسب طبيعة علاقتها بمحيطها، وبحسب مدى قربها أو بعدها عن المدن المركزية، فقرى الساحل عادة ما تكون أكثر انفتاحًا من قرى الداخل التي تتميز بالاكتفاء الذاتي والانغلاق نتيجة ما يهددها من عوامل الغزو والهجوم الذي كانت تتعرض له في بعض المراحل، وتختلف الأرياف بحسب ما تتعرض له من برامج الإدماج والإصلاح، فالأرياف المدمجة في دورات التنمية

الاقتصادية والاجتماعية في عديد من الأقطار العربية أكثر انفتاحًا وتطورًا من الأرياف التي ظلت معزولة أو منغلقة بسبب الإهمال أو التهميش.

٣- القرى المتجددة والقرى المندثرة: تلعب العوامل الطبيعية (التصحر) والاجتماعية (الهجرة) والاقتصادية (شح الموارد) أدوارًا هامة في اندثار بعض القرى العربية في عديد من الأقطار وقد أدى ذلك إلى تحول العديد منها إلى آثار مهجورة، وأطلال منثورة. كما تحول البعض الآخر إلى مواقع سياحية يتم توظيفها حسب الظروف. لكن قرى أخرى انبثق وجودها من العدم، فقد ساهم اكتشاف بعض الموارد الطبيعية كالبترول والغاز في الجزائر وليبيا والسعودية وبلدان الخليج العربي الأخرى في إقامة قرى وتجمعات حول مشاريع الاستخراج حيث تتجمع القوى العاملة اللازمة وتتوسع الخدمات مشكلة نواة كبيرة أو صغيرة في قلب الصحراء. كما ساهم اكتشاف الفوسفات في الجنوب التونسي في منطقة الحوض المنجمي التي تجسدها مجموعة من القرى التي أُنشئت منذ بدايات القرن العشرين (المتلوي، الرديف، أم العرايس، المظيلة...) في تحول تلك القرى إلى مدن صغيرة يتجمع فيها عمال قطاع الفوسفات من ذوي الأصول المحلية والمغاربية المختلفة[٢١]. وينطبق الأمر ذاته على عديد من الأرياف المصرية والمغربية والعراقية والسورية.

أما تجربة القرى المستحدثة التي عرفتها بعض الأقطار العربية بعد استقلالها وتبنيها لتجارب "**الإصلاح الزراعي**"، و"النظام الاشتراكي"، فإنها عرفت تراجعًا كبيرًا مما أدى إلى التخلي عن عديد النواتات القروية والمشاريع الزراعية والخدمية ببعض الأرياف (العراق – مصر – سوريا – تونس – الجزائر – اليمن).

(٢١) بوطالب (محمد نجيب)، الظواهر القبلية والجهوية في المجتمعات العربية المعاصرة، دراسة سوسيولوجية مقارنة للثورتين الليبية والتونسية، قطر، ٢٠١٢م.